صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٥ -

النظرة الجديدة إلى الاسلام في القرن الثامن عشر :

إن النزعة العقلية التي تميزت بها « حركة النور » في القرن الثامن عشر كان لها تأثير كبير في تغيير نظرة الأوربيين إلى الشرق عامة . فقد كانت هذه الحركة تسمى ، قبل كل شيء ، إلى التحرر من سيطرة الكنيسة ومن القيود التي فرضتها على الحياة الفكرية . وكانت الجماهير قد عرفت الشيء الكثير عن البلاد الشرقية بفضل كتب الرحلات الحقيقية أو الخيالية التي شاعت في هذا العصر . وكان الإعجاب عظيماً بحضارة الصين خاصة . فأخذ الكتاب ينوهون بديانة (كونفوشيوس) وما امتازت به من حكمة وتسامح ويستندون إلى ذلك في مهاجمة تعصب رجال الدين المسيحي . ثم اتسع نطاق الاهتمام فشمل الهند وفارس والشرق الإسلامي كله .

وقـــد تبدلت النظرة إلى الرسول ﷺ ، فنرى الفيلسوف (لايبنيز Leibniz) يعتبره مبشراً بالديانة الفطرية . ولعل أبرز ممثل للاتجاه الجديد هو الكونت (هنري دوبولنفيه Henry de Boulainvilliers) (١٦٥٨ — ١٧٢٢) الذي مات قبل أن يتم كتابه عن (حياة محمد) (١) فنشر بعده في لندن سنة ١٧٣٠ وأعيد طبعه في آمستردام سنة ١٩٣١ .

---

(١) Le Comte Henry de Boulainvilliers : La vie de Mohamet, avec des réflections sur la religion Mahometane et les coutumes de Musulmans, London 1730; 2ed. Amsterdam 1931.

يصرح (بولنفيه) بأنه يريد إثبات تفوق الإسلام على المسيحية . وهو قد وصف الرسول ﷺ بأنه مشرع حكيم ، متنور ، قاد شعبه إلى الحضارة وجاء بديانة « عقلية » لتحل مكان العقائد اليهودية والمسيحية المشبوهة . ثم إنه يهاجم الذين يشكون في صدق الرسول ﷺ ويبين أن كل ما قاله محمد ﷺ عن تعاليم الدين الأساسية صحيح ولو أنه لم يكشف عن كل الحقائق .

لكن لا بد من الملاحظة أن (بولنفيه) لم يكن يعرف العربية وأن كتابه لم يأت بمعلومات جديدة . فهو قد جمع مادته من المؤلفات الأوروبية وأراد أن يستخدم الموضوع لمكافحة سيطرة الكنيسة .

ولقد لخص ناشر الكتاب رأي المعاصرين فيه بالعبارة التالية ضمن رسالة بعث بها إلى المستشرق الفرنسي (جان غانيه Jean Gagnier) ، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (اوكسفورد) ، قال : « إن (بولنفيه) يمزج تاريخه بكثير من التأملات السياسية التي تعجب القراء لما فيها من طرافة وجرأة » .

جان غانيه :

على أن المستشرق (غانيه) رأى في هذه التأملات الطريفة والجريئة خطراً كبيراً وشعر بأن من واجبه التحذير من كل تطرف والدعوة إلى اتباع الطريق الوسط بين ضلال المتعصبين وحماسة المتهوسين . وكان قد سبق لغانيه أن نشر القسم المتعلق بسيرة الرسول من تاريخ (أبي الفداء) باللغة العربية مع الترجمة اللاتينية في سنة (١٧٢٣) فقام بعد صدور كتاب (بولنفيه) وألف في سنة (١٧٣٢) كتابه عن « حياة محمد » باللغة الفرنسية .

يتبين من مقدمة هذا الكتاب أن (غانيه) ليس صادقاً في ادعائه الحياد . فهو لا يقتصر على مهاجمة كتاب (بولنفيه) ، الذي يزعم بأنه يستحق الحرق بل يطعن في الرسول أيضاً . وعلى الرغم من أن (غانيه) قد استند إلى القرآن والحديث وروايات المؤلفين المسلمين في وصف حياة الرسول ﷺ وشخصيته وأعماله وحاول أن ينقل النصوص بأمانة فان التحزب واضح في اختيار الشواهد وفي طريقة عرضها .

(سيل) و (سافاري) :

إننا نلمس الرغبة في الإنصاف وحب الحقيقة عند مستشرقين آخرين برزا في ذلك العهد وقاما بترجمة القرآن من جديد :

الأول هو المستشرق الانكليزي (جورج سيل George Sale) (١٦٩٧ — ١٧٣٦) الذي مهد لترجمة القرآن (١) بمقدمة ضافية بحث فيها عن العرب قبل الإسلام وعن حالة اليهودية والمسيحية في الشرق عند ظهور الرسول ﷺ وعن القرآن وتعاليمه ثم نفى عن الرسول المطاعن التي اعتاد الكتاب المسيحيون تكرارها وقارن بين محمد ﷺ والمشرعين اليونانيين .

أما المستشرق الثاني الفرنسي (قلود أتيان سافاري Claude Etienne Savary) فقد كتب في مقدمة ترجمته للقرآن (١) يصف الرسول ﷺ بأنه أحد أولئك الرجال العظام الذين يظهرون من وقت إلى آخر فيقلبون أوضاع العالم ويقودون البشر في طريق التقدم والنصر . ثم يقول : « ونحن إذا أمعنا النظر في سيرة محمد ﷺ لا بد أن نشعر بالاعجاب تجاه المعجزات التي تستطيع العبقرية البشرية تحقيقها إذا ما ساعدتها الظروف . فالرسول محمد ، على الرغم من

(١) George Sale, The Koran, London 1734 .
(٢) Claude Etienne Savary, Le Coran : Paris 1752 (2ed. 1783).

أنه ولد بين عبدة الأصنام ، قد استطاع أن يسمو إلى عبادة الإلـه الواحد . وهو قد لاحظ في رحلاته كيف كان المسيحيون يتنازعون وتلعن كل طائفة منهم الأخرى وكيف أن اليهود الذين هم حثالة الشعوب لا يتزحزحون عن تقاليدهم البالية . وعلى العكس من المسيحيين واليهود أسس محمد ديانة عالية تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقره العقل من إيمان بالإلـه الواحد الذي يكافيء الفضيلة ويعاقب الرذيلة . . . »

وبعد أن ينوه (سافاري) بعبقرية الرسول السياسية والعسكرية وبقدرته في السيطرة على البشر يصرح بأن الغربي المتنور ، وإن لم يعترف بنبوءته ، لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ .

إن الباحث المديدة عن حياة الرسول ﷺ وشخصيته التي ظهرت في القرن الثامن عشر كانت خاضعة للنزعات السياسية والاتجاهات الفكرية ، إنها كانت تهدف إلى الدفاع عن مبدأ معين أو فكرة سابقة ، لذلك كان الاختلاف شديداً والتناقض ظاهراً بينها . وهي بالإجمال كان محكوماً عليها بأن تبقى عقيمة لا تؤدي إلى كشف حقائق جديدة أو إلى تقدم المعرفة . هكذا نرى (فولتير) يمثل لنا هذا الاضطراب إذ اختار شخصية الرسول موضوعاً لرواية تمثيلية (١) هاجمه فيها على أنه رمز للتعصب الديني ثم عاد في كتابه عن « الأخلاق والعادات » (٢) يلتزم الاعتدال في الكلام على الرسول ويعترف بنبوغه وعظمته .

(قارلايل) :

وقد ظل الرأي السائد بين الأوروبيين عن الرسول ﷺ غامضاً وأقرب إلى المعارضة والمعاداة ، وقبل كل شيء ، بعيداً عن التحقيق التاريخي حتى

(١) Voltaire : Le Fanatisme ou Mahomet, le Prophète, Paris 1741.

(٢) Voltaire. Essai sur les moeurs. Paris 1756.

منتصف القرن التاسع عشر إذ قام ، من جهة (قارلايل) يدعو إلى الإنصاف ومن جهة ثانية ، بدأ غيره من المستشرقين يرجعون إلى المصادر العربية القديمة ويتبعون طرائق النقد التاريخي في دراستها .

في يوم الجمعة ، الثامن من آذار سنة ١٨٤٠ ألقى المستشرق الانكليزي (توماس قارلايل Thomas Garlyle) (١٧٩٥ — ١٨٨١) المحاضرة الثانية من سلسلة محاضراته التي جمعها من بعد في كتابه المشهور « الأبطال وعبادة الأبطال »(١) وكان موضوعها : (الرسول محمد) . قال (قارلايل) :

« لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور . وقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة ، المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً . فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إذن إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لا تخلق . » [تعريب : محمد السباعي]

ثم حلل (قارلايل) شخصية الرسول وكشف عن نواحي عبقريته التي تتجلى فيها أسمى معاني الوحي وانتهى إلى أن محمداً ﷺ كان مخلصاً في دعوته ، صادقاً في عقيدته مثل غيره من العظماء المؤمنين .

(١) Thomas Carlyle : On Heroes, Hero - Worship and the Heroic in History. London 1849

وكان (قارلايل) من الكتاب الانكليز البارزين يمتاز بأسلوب رائع ، فاستطاع أن يترك أثراً عميقاً في الرأي العام الاوروبي . إلا أن محاضرته عن الرسول لم تكن بطبيعة الحال ، تتضمن شيئاً من البحث في المصادر التاريخية ومناقشة الروايات . . .

(وايل) والبحث التاريخي الانتقادي :

لذلك كان المستشرق الألماني (كوستاف وايل Gustav Weil) (١٨٠٨ — ١٨٨٩) ، حينما نشر كتاب « محمد الرسول ، حياته وتعاليمه »[١] على حق في قوله بأن كتابه هذا هو أول دراسة ذاتية مستقاة من المصادر العربية منذ كتاب (غانيه) الذي انقضى عليه أكثر من قرن ، عدا أن (غانيه) قد اقتصر على نقل بعض الأخبار عن (ابن العبري) و (أبي الفداء) دون أي نقد تاريخي . وهذان المؤلفان من الكتاب المتأخرين الذين لا يمكن الوثوق بهم .

إن (وايل) أيضاً يريد الاعتماد على المصادر العربية ، ولكنه يعتقد ، من جهة بضرورة الرجوع إلى جميع المصادر الممكن الحصول عليها ولا سيما المصادر القديمة ، ثم يطالب من جهة ثانية ، بإخضاع هذه المصادر إلى النقد التاريخي ومقارنتها وتمييز الروايات الصحيحة من المدسوسة أو المزورة أو المحرفة . ويمكن القول بأن (وايل) قد افتتح مرحلة جديدة في دراسة سيرة الرسول ﷺ . فهو أول مستشرق بحث بطريقة انتقادية في الروايات المتناقلة عن الرسول وحاول أن يميز الأخبار القديمة التي تستحق التصديق من الأساطير المتأخرة التي ليس هناك من دليل على صحتها . وهو لم يكتف

(١) Gustav Weil, Mohammed der Prophet, sein Leben und seine Lehre, 1843.

بالمصادر المعروفة قبله ، بل بحث في المكتبات عن مختلف المخطوطات المتعلقة بالسيرة واختار منها كتاب « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » المعروفة « بالسيرة الحلبية » تأليف (برهان الدين علي بن ابراهيم الحلبي) ، ثم تاريخ « الخميس » (الحسين بن محمد بن الحسن الدياربكري) . والمؤلفان من رجال القرن السادس عشر ، ولكنهما قد نقلا حرفياً كل ما عثرا عليه في الكتب القديمة منذ القرن الثاني للهجرة حتى عصرهما . وبعد ذلك أرسل إليه الأستاذ (أيوالد Ewald) ، المستشرق الألماني ، مخطوطة هامة جداً هي (سيرة ابن هشام) التي قام (وايل) في سنة ١٨٦٤ بترجمتها إلى الألمانية بعد أن تولى (وستنفلد Wuestenfeld) تحقيق النص العربي ونشره . ثم أقدم (وايل) على دراسة القرآن بمساعدة تفسير الجلالين وحاول ترتيب الآيات حسب تعاقبها الزمني ليستعين بها في متابعة حياة الرسول . وبعد ذلك سعى إلى دراسة شخصية محمد الإنسان والنبي والمشرع بصورة موضوعية دون أي تحزب ديني .

وكان طبيعياً أن يراجع (وايل) كل المؤلفات الأوروبية عن حياة الرسول . وقد درس أيضاً بحوث (جايجر Geiger) و (جيروك Gerock) عن علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية .

والنتيجة التي انتهى إليهـــا (وايل) من دراسته تتلخص في قوله : « بالنظر إلى ما قام به محمد من نشر أسمى التعاليم الواردة في الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) بين شعب لم يصل إليه أي شعاع من نور الإيمان ، يجب على غير المسلمين أيضاً أن يعتبروه رسول الله . »

منذ نشر كتاب (وايل) تقدمت دراسات المستشرقين خطوات عظيمة وكشفت عن كثير من الحقائق الجديدة . ولكن لا ينكر أن لهـذا العالم

فضل السبق إلى البحث العلمي الدقيق . والأحكام التي وصل إليها العلماء بعده لا تختلف بالإجمال كثيراً عن رأيه . . .

(دو برسفال) :

هكذا نرى المستشرق الفرنسي (قوسان دوبرسفال Coussin de Perceval) يصدر ، بعد بضع سنوات ، حكماً مماثلاً في كتابه عن « تاريخ العرب »(١) ، الذي خصص الجزء الثالث منه لوصف حياة الرسول . ويتلخص رأيه في « أن محمداً (ﷺ) كان صادقاً ، مخلصاً ، مؤمناً بأنه مرسل لإنقاذ أمته من الضلال وبعثها إلى الحياة . . » وهو قد اقتصر على استعراض ما ورد في المصادر العربية دون تحليل ونقد . ولكنه كان يمتاز على المستشرقين السابقين بمعرفته العميقة للغة العربية وباطلاعه الواسع على أخبار العرب ، كما إنه استخدم مصادر جديدة لم تكن معروفة قبله . بذلك أصبح كتابه مرجعاً هاماً يستقي منه الباحثون . وإليه خاصة استند (رينان Renan) في دراساته عن الإسلام ومقارناته بين مختلف الأديان . وهو يصف الإسلام بأنه « ديانة طبيعية ، فطرية ، جدية ، متسامحة ، معقولة . . . »

تطور الطريقة التاريخية ـــ الانتقادية :

لم يكن (وايل) و (دوبرسفال) يجهلان ما لحق أخبار الرواة المسلمين من تحريف وتزوير بسبب المنازعات الطائفية والاختلافات المذهبية . ولا شك في أنهما يمتازان على من سبقهما من المستشرقين بالسعي إلى التمييز بين الروايات الصحيحة والكاذبة . ولكن طريقتهما في النقد كانت تعتمد كلياً على مجرد

(١) Coussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes . . . Paris 1847—1848.

الذوق السليم ولم تستند إلى نتائج البحث التاريخي نفسه . فهما لم يلاحظا كما ينبغي أن كتب السيرة قد تطورت في طريقة تأليفها وأسلوب كتابتها تبعاً لما حدث من تطور في العقيدة الإسلامية ذاتها . وقد غفلا عن أن الكثير من التعاليم والتقاليد التي شاعت بين المسلمين في العصور المتعاقبة وأصبحت تعتبر من صميم الإسلام لم يكن لها أي صلة بالعقيدة الإسلامية الأصلية . وقد بدأ المستشرقون ينتبهون إلى هذه الناحية حوالي سنة ١٨٦٠ كما يستدل من مؤلفات عديدة عن حياة الرسول ظهرت في ذلك العهد ، أهمها هي مؤلفات (موير) و (شبرنجر) و (نولدكه) .

(للبحث صلة) الدكتور محمد كامل عياد